

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده و نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن من المعلوم لدى من تصدى لدراسة علوم القرآن الكريم، ونال شرف الإسهام في تقليب النظر في ثناياه العطرة، والبحث عن أسرار إعجازه الزاهرة، ومكامن سموه المنتشرة، أن القرآن قد نزل على النبي ﷺ مرفقاً في نيف وعشرين سنة، وكان ذلك لحكم بالغة منها تسهيل إقراءه وتسلية قلبه وفؤاده ﷺ ومسايرته لمستجدات أحداث الزمان وتيسيره ليكون أقدر على تربية جيل القرآن الذي كان لا يتجاوز عشر آيات حتى يتلقى ما فيها من العلم والعمل، وكانت تلك الطبيعة النزولية للقرآن ومن ثم ترتيبه على غير نزوله في المصحف العثماني الذي بين أيدينا قد تركت أثراً كبيراً وملحوظاً في مجال استنباط الأحكام الشرعية، لا سيما في ضرورة معرفة المتقدم والمتأخر و المقترن والمتراخي من النصوص التي تجمعها وحدة الموضوع، وفق ما تتطلبه القواعد الأصولية اللازمة لآلية الاستنباط، الأمر الذي ترك بصمات واضحة على تراثنا الفقهي والتفسيري بشكل ظاهر للعيان، ومن هنا اقتضت الحاجة إلى بيان أثر الوحدة الموضوعية في عملية استنباط الأحكام الشرعية، كونها أساساً من الأسس المعنية بتفسير الخطاب الشرعي واستيحاء روح الشريعة ومنطقها ومقصدها، حيث تؤكد على ضرورة البحث عن كل ما ورد في الموضوع الذي تناوله النص المعني بفهمه، ثم اتخاذ الفهم من الكل، لاسيما وأنها قد روعيت بدرجة أعلى ما تكون عند الأصوليين وإن الناظر في كتبهم يرى أن أسس النظرية قد استوت على درجة عالية من الدقة وانتشرت مباحثها في مصنفاتهم لكنهم لم يتناولوها في مبحث خاص ذي عنوان معروف بل بثت تطبيقاته في دراساتهم بما يتلاءم وطبيعة الطرح في الدرس الأصولي.

مشكلة البحث:

وتكمن مشكلة البحث في:

أولاً: كيفية استنباط الحكم الشرعي على مستوى النص الذي يتناول موضوعاً مفرقة أجزاؤه متلاحقة أو متراخية، والعوامل المؤثرة في ذلك داخلاً وخارجاً وما يتفرع عن ذلك من تأصيلات أصولية، إذا علمنا أن الشريعة راعت في إنزال الأحكام أحوال المخاطبين بها والتدرج في إنزالها وكان ذلك على نيف وعشرين سنة، حيث تتخلل بعض الأحكام وتبنى بعضها على بعض مع عسر الحصول على تاريخ زمني دقيق للنصوص القرآنية مما يساعد الأصولي في لمّ أطراف الموضوع الواحد ومعرفة علاقات البيان والتبيين فيما بينها، لذلك جاءت هذه الدراسة لتوضح الأسس التي نزل عندها الأصوليون في التعامل مع هذه الطبيعة القرآنية المتسمة بتداخل المواضيع وتلاحقها وغياب المعلومات التاريخية لكثير منها.

ثانياً: إن نظرية الوحدة الموضوعية التي قضت بأن القرآن الكريم أو السورة الواحدة عبارة عن كلمة واحدة وموضوع واحد باعتبار المنطق الإلهي وتنزيه الكتاب المقدس تعود بإشكال في مجال استنباط الأحكام الشرعية حيث أن الأصوليين لا يرتبون أي أثر فقهي على النظم المتتابع المتصل ما لم يتحد معه في الموضوع بشكل خاص، إذن فهل يصار إلى نفي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وي طرح ظاهر النظم القرآني مع ما يحف هذه الخطوة من مخاطر أولها: كيفية معرفة المتقدم والمتأخر من النصوص حسبما يقتضيه الدرس الأصولي أم إثبات الوحدة الكاملة للقرآن وبالتالي الاصطدام مع القواعد الأصولية اللازمة لعملية الاستنباط، والجواب جاء في هذه الدراسة التي سعت لتجلية مفهوم الوحدة الموضوعية وبيان ما يتناسب منه وطبيعة الدرس الأصولي وبيان مدى أثر الأسس التي قامت عليها النظرية في مجال استنباط الأحكام الشرعية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في الأمور التالية :

أولاً: إن مسألة تحقيق الوحدة الموضوعية له دوره الكبير في تسليط الضوء على الكثير من الخلافات الفقهية النابعة من توهم طريقة معينة في الجمع بين النصوص واستنباط الحكم الشرعي منها وبالتالي إفادة الدارسين والباحثين وإرشادهم إلى الطريقة المثلى في تقصي أطراف القضية الواحدة واستنباط الحكم الشرعي منها.

ثانياً: إن غزارة المادة العلمية التي قدمها الأصوليون في هذا الصدد وخطورتها في الميدان العلمي تجعل في الإمكان تقديم صورة علمية متكاملة لقراءة النصوص من منظور إسلامي أصيل.

ثالثاً: إن استواء هذه المسألة ونضوجها يدفع باتجاه تعزيز سماوية القرآن الكريم من حيث إعجازه وتكامله وترابطه وتناسقه حتى يكون كالعقد الذي تنتظم درره، وفي الوقت ذاته لجاماً لأفواه منتقديه من المستشرقين والملحدين، الذين ينتقدون نظم القرآن وطريقة ترابط موضوعاته والتسلسل في عرضها.

رابعاً: كذلك فإن تحقيق هذه المسألة يقطع الطريق أمام المراهقة الفكرية التي يتبناها بعض الذين لم تكتمل لديهم أدوات العلم، فظنوا أن مائدة الاجتهاد مائدة فقيرة تختلف عليها أيدي الفقراء متى شاءت، فراحوا يستنبطون الأحكام الشرعية بمجرد النظر إلى دليل واحد في المسألة الواحدة دون الإمام بأطراف القضية و تشعباتها، في الوقت الذي قد لا يسلم ذلك الدليل من تخصيص أو تقييد أو تفصيل أو نسخ.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية :

أولاً: تحديد العلاقة بين أجزاء النظم القرآني المترابط والمكون من مجموعة من الجمل والوحدات و العبارات والآيات والسور وأثر ذلك في استنباط الأحكام الشرعية .

ثانياً: رسم الطريقة التي يتمكن بها الأصولي من استنباط الحكم الشرعي على مستوى النظم المتلاحق أو المتفرق، ووصف المنهج الأصولي في تحديد معالم هذه الطريقة.

ثالثاً: إبراز دور الأصوليين في تحديد ملامح الوحدة الموضوعية وأبعادها التي تشملها طبيعة الدراسة الأصولية المعنية في استنباط الأحكام الشرعية من النصوص الإجمالية.

حدود البحث:

وتنحصر حدود هذه الدراسة في الآتي:

أولاً: تناول النصوص القرآنية التي تتعلق بجانب فقه التشريع وفيما تسمى تحديداً بآيات الأحكام ومقابلتها وتحليلها وبيان ما يترتب عليها من استنباطات مع الاستشهاد - نادراً - ببعض النصوص القرآنية خارج آيات الأحكام ليس لغرض تأسيس المفاهيم وإنما لغرض التأكيد والتقوية.

ثانياً: تمثل هذه الدراسة عرض المنهج الأصولي المتبع في التعاطي مع آيات الأحكام في ضوء مفهوم الوحدة الموضوعية وليس بالضرورة أن تحيط بكل الأمثلة والتطبيقات التي تؤيد المفهوم من النظرية.

٣- معظم المسائل والتطبيقات التي تناولتها الدراسة والتي قد سبق وأن بحثت من قبل إنما كان الغرض من إيرادها هنا هو دراستها وفق الأسس والضوابط التي حددتها طبيعة الدراسة.

الدراسات السابقة:

على الرغم من أهمية هذا الموضوع وتعلقه الشديد بمباحث علم أصول الفقه، لا نجد من العلماء والدارسين من خصه بالدراسة وألم به من كل جوانبه ووضعه في قالب دراسة أصولية مستقلة، تستلهم منه الدراسات الأصولية قواعد علمية يُعتكف عليها في تفسير النصوص وتعليلها وتنزيلها في الواقع، بيد أن هذا لا يعني أن الدارسين - قديماً وحديثاً - كانوا بمنأى عن المفهوم ابتداءً، بل كان للأصوليين فضل الريادة في طرح مادة الوحدة الموضوعية وإعمالها في دراساتهم للنص الشرعي، غير أن مفرداتها كانت متناثرة ومبثوثة في ثنايا التأصيلات الجمة الكثيرة التي أنتجها الدرس الأصولي، الأمر الذي يتطلب من الباحث بذل المزيد من الجهد لتقييد أسس الوحدة الموضوعية وأصولها في دراسة علمية متكافئة.

ومن خلال ما وقف عليه الباحث من دراسات ومؤلفات فلن يتم تناولها جميعها خشية الإطالة وإنما سيتم التركيز على ما هو ألسق بموضوع الدراسة واعتمدت في ترتيبها تسلسلها الزمني، وفق الآتي:

أولاً: دراسة الأستاذ الصادق أحمد الخازمي، في كتابه الموسوم بـ"النظم القرآني وأثره في الأحكام" والصادر عن طرابلس: الكتاب الإسلامي، ط ١، ١٣٩٤هـ/١٩٨٥م).

الذي بين فيها معنى النظم القرآني وطبيعته وخلاف العلماء في مسائل تتعلق بإعجاز القرآن، ومدى توقيفية ترتيب السور والآيات القرآنية، وخلاف العلماء في المناسبة بين الآيات والسور، والعلاقة بين المكّي والمدني، وسياسة التشريع القرآني، وكذلك تعرض للشبهات التي يثيرها المستشرقون على النظم القرآني، وأشار إلى أن سياق الآية القرآنية في النظم يشير إلى الغرض العام الذي جاءت له السورة، وإن مقامها ووقت نزولها يشير إلى معنى الآية وغرضها الذي جاءت له.

وقد استفدنا من هذه الدراسة حول طبيعة النظم القرآني وأثر المناسبة فيه وأثر السياق في تحديد الغرض منه وهو ما ألقى الضوء على بعض الإشكالات التي تقف عقبة في تحقيق مفهوم الوحدة الموضوعية وبالتالي أثره في استنباط الأحكام الشرعية.

وما يؤخذ على هذه الدراسة هو أنه لم يوف بعنوانها، أي أنه لم يبين حقيقة التبيين لأثر النظم القرآني في الأحكام، لذلك بقي جانب التأثير في آيات الأحكام مجهولاً، كذلك فإن هذه الدراسة قد اقتصرت على مسألة النظم ولم تتعداه ولم تتطرق إلى كثير من مضامين دراستنا نحن.

ثانياً: دراسة الشيخ عبد الرحمن حسن الميداني، في كتابه "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل" والصادر عن دار القلم، دمشق سوريا، ط ٢، ١٩٨٩ م. فقد أشار إلى قواعد علمية في غاية الأهمية، حول بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية والنفسية والفكرية الفردية والاجتماعية والتفسيرات الجزئية والمعنى الكلي و تكامل النصوص القرآنية وأهمية التفسير بالمأثور وتتبع مراحل التنزيل والنظر في أسباب النزول ولزوم فهم الآية وفق ترتيب نظمها... إلى غير ذلك من القواعد العلمية المبتوثة في هذا الكتاب.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنه يطرح الوحدة الموضوعية كوسيلة من وسائل التفسير والتدبر اعتماداً على مبدأ تكامل النصوص، وهو ما يؤيد هدف الدراسة ويعضدها. غير أن ما يؤخذ عليها أنها لم تتعرض لجانب آيات الأحكام.

ثالثاً: ومن الدراسات الحديثة أيضاً كتاب "الخطاب الشرعي وطرق استثماره"، وهي "رسالة دكتوراه" للدكتور إدريس حمادي، والصادرة عن المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ١٩٩٤ م.

الذي أشار فيه إلى حتمية استحضار شخصية الرسول ﷺ لمعرفة الخطاب الشرعي كما رسمها القرآن والسنة والسيرة، وإنه ينبغي معرفة ما أحاط بالخطاب الشرعي من مستوى قريب يمثله تاريخ ذلك الخطاب جمعاً وكتابة وأسباب النزول أو ورود ووجود قراءة وغير ذلك مما ذكر في علوم القرآن، ومن مستوى بعيد تمثله البيئة العربية المادية والمعنوية، بل لا بد من المعرفة بأحوال البشر لأن البشر هم موضوع الخطاب الشرعي.

والوجه اللصيق بدراستنا أن الباحث قد تناول مسألة السياق بدوره عاملاً من عوامل استثمار الخطاب الشرعي ونحن قد استفدنا من إشارته هذه في تحديد مدى امتداد الفهم الموضوعي للنص الشرعي وأن السابق واللاحق من الجمل له دوره في تجلية المراد

من الخطاب الشرعي، وهذا معنى من معاني الوحدة الموضوعية وكذلك مدى أهمية معرفة السياق الخارجي للنص من سبب النزول وتاريخ النزول وغيرها وأهمية ذلك في فهم السياق الذي هو إحدى دعائم الوحدة الموضوعية.

غير أن الدراسة لم تتطرق إلى باقي مكونات مفهوم الوحدة الموضوعية وما يترتب عليها من أهمية وتأثير في عملية استنباط الأحكام الشرعية، لذلك فقد جاءت إشارات هذه مقتضبة بالنسبة لموضوعنا مختصرة تتوافق مع طبيعة توجه الدراسة عنده.

رابعاً: دراسة الدكتور موسى بن مصطفى العبيدان، والموسومة بـ "دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين" وهي رسالة "دكتوراة" صادرة عن دار الاوائل، دمشق سوريا، ط ١ ٢٠٠٢ م.

تناول اهتمام الأصوليين بالمباحث الدلالية كسمة تميزهم عن غيرهم وأنهم قد انتهوا إلى نتائج علمية كبيرة تلتقي مع ما توصل إليه اللغويون المعاصرون حول التعميم والتخصيص والغموض والوضوح وغيرها من المباحث كما ذكر أن الأصوليين في دراستهم لم يميزوا بين الألفاظ ودلالاتها المختلفة وبين التركيب، بل إنهم درسوا المعنى على المستويين المعجمي والتركيبى ضمن القرائن السياقية. وجاءت هذه الدراسة بحسب طبيعتها منحصرة فيما أخذ المؤلف على عاتقه بيانه فلم يتطرق لأثر المعنى التركيبى للنصوص في استنباط الأحكام إلا في النزر اليسير منه فبقيت هذه الإشارات ناقصة تحتاج التنظير من جهة ثم التمثيل والتطبيق من جهة أخرى. وكانت استفادتنا من هذه الدراسة هو استثمار تلك الإشارات فيما يتعلق بتقسيم المعنى في دراسته عند الأصوليين إلى المعنى الإفرادى للنص والمعنى التركيبى الأكبر الذي يتناول ذلك النص مع النصوص الأخرى التي تقع ضمن إطار الموضوع الواحد فكان عملنا هو إنزال ذلك المعنى على آيات الأحكام ثم الخروج بالنتائج ضمن سياق الدراسة المقترح.

خامساً: ومن الدراسات الحديثة التي ينبغي أن لا نغفل عن مساهمتها الجادة في دراسة النظم القرآني والخطاب الشرعي ببعديه والظواهر الدلالية من خلال دلالة السياق ووظيفته وموقعه في دلالة الألفاظ عند الأصوليين، الدراسة الموسومة بـ "نظرية السياق "

وهي "رسالة دكتواه"، للدكتور نجم الدين الزنكي، والصادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ٢٠٠٣ م.

والتي قد طرح فيها المؤلف رؤية أصولية شاملة لتفسير النص آخذاً بنظر الاعتبار الجانب اللغوي والجانب غير اللغوي والخطابي، فكانت محاولة جادة وسعي حثيث إلى إبراز معالم الفهم وضوابطه من خلال التعريف بدلالة السياق وقرانه وطرق التوصل إليه وسبل استخراج الفهم منه.

وفي ثنايا دراسته لسياق النظم عرض عدة تساؤلات تتعلق بطبيعة النظم القرآني ثم أجاب عليها إجابات علمية رصينة منوهاً إلى ضرورة معرفة "الوحدة الموضوعية" والمناسبة القرآنية واتخاذها قاعدة يستند إليها الأصولي في استنباط الحكم الشرعي. وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسة في بابها إلا أنها لم توضح كثيراً من معالم الوحدة الموضوعية وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية، فلا نجد فيها إلا بحث علاقة الوحدة الموضوعية بنظم السورة كذلك عرض طريقة الشاطبي تتبع أطراف الموضوع على مستوى النظم وكانت طريقتها تتوافق مع طبيعة دراسته في موضوع السياق، أما نحن فقد استثمرنا هذه الإشارات و عملنا على بيان أسس النظرية وأبعادها كاملة وأثرها في عملية الاستنباط وبما يحقق هدف الدراسة لدينا.

سادساً: دراسة الدكتور عمار بن عبد الله بن ناصح علوان، والموسومة بـ " الاجتهاد وضوابطه عند الإمام الشاطبي " وهي ((رسالة دكتوراه)) صادرة عن دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

وقد عرض فيها المؤلف لضوابط الاجتهاد عند الإمام الشاطبي وذكر أن الإمام الشاطبي ينزل في فهم دليل القرآن وفق النظرة الكلية للسورة برمتها أو حتى أبعد من ذلك حيث تتسع إلى أن تصل إلى القرآن ككل وهذا ما يصطلح عليه بمصطلح الوحدة الموضوعية، وقد صرح الدكتور عمار بأن الشاطبي يعد أول من أصل للوحدة الموضوعية تأصيلاً أصولياً، غير أن هذه الدراسة يؤخذ عليها أنها تميل إلى السرد منه إلى التطبيق في الغالب وقد يكون سبب ذلك هو طبيعة الدراسة، وبجانب تصريحه بتأصيل

الشاطبي للوحدة الموضوعية لم نجد أي معلم يدلنا على هذا التأصيل سوى نقولات للشاطبي تفتقر إلى التحرير والتطبيق.

لذلك جاءت دراستنا لتستثمر هذه الإشارات - التي نوه عليها المؤلف - من الإمام الشاطبي وتضعها على طاولة البحث مع الاستشهاد لها بالأمثلة وربطها بما قرره الأصوليون وإخراج النتائج.

سابعاً: دراسة بعنوان "المناسبات وأثرها على تفسير القرآن" للأستاذين "مصطفى مسلم وعبد الله الخطيب" وهو بحث صادر عن مجلة جامعة الشارقة للعلوم الانسانية والشرعية، ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ / يونيو ٢٠٠٥ م، مج: ٢، عدد: ٢.

وقد عرض فيها الأستاذان المناسبة بأنواعها وبيننا مدى أهمية مراعاتها في التفسير ومدى ارتباطها كدعامة تدعم الوحدة الموضوعية وبين أن هناك مجموعة من الآيات القرآنية يتعذر أن يجد المفسر رابطاً يربط بينها سوى ما قرره العلماء من أسس المناسبة التي دعى فيها الأستاذ إلى أن تتخذ أساساً في التفسير لاسيما وأن لها جذوراً متأصلة لدى علماءنا الأوائل.

لكن ما يؤخذ على هذه الدراسة أنها لم تتعرض لجانب الأحكام الشرعية وإنما كانت الدراسة في غير آيات الأحكام مجارة للسائد في دراسات علوم القرآن. أما عملنا فيرنو إلى بيان أثر هذه الوحدة في استنباط الأحكام الشرعية وما يترتب على ذلك من نتائج فقهية، وقد استفدنا من هذه الدراسة في التأكيد على توافر المناسبة بين آيات القرآن وظهور التناغم والإئتلاف بين المقاطع القرآني على الرغم طبيعته النزولية ومن ثم ترتيبه.

ثامناً: دراسة الدكتور "عبد الرحمن عبيد حسن" في رسالته "للدكتوراه" والموسومة بـ "السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية"، وهي "رسالة دكتوراه" صادرة عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠٠٥ م.

وقد جاءت هذه الدراسة لتعمق الدراسات في حقول الوحدة الموضوعية في سور القرآن وآياته من خلال تحليل أسس ثلاث، علم المناسبة القرآنية، الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة، التفسير الموضوعي القائم على تعقب مفردة في كامل القرآن أو أجزاء

منه وعرضها في صورة مشروع فكري أو اجتماعي أو سياسي يراعي فيه ترتيب السور والآيات الزمني أو العثماني.

وما يقال في هذه الدراسة هو ما قيل في الدراسة التي قبلها، وهو أن الدراسة لم تتعرض لجانب الأحكام الشرعية وإنما كانت الدراسة في غير آيات الأحكام مجارة للسائد في دراسات علوم القرآن

تاسعاً: وكذلك دراسة الدكتور أبو قدامه أشرف بن محمد الكناني والموسومة بـ "الأدلة الاستثنائية عند الأصوليين" وهي "رسالة دكتوراه" صادرة عن دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ط ١، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م.

حيث سلط فيها الضوء كذلك على السياق كدليل استثنائي وبين مدى تأثيره في استنباط الحكم الشرعي وبين مدى شموله لكثير من مباحث الأصول، والنقطة التي تهمنا هي: أثر السياق في الاستنباط والذي له علاقة ببحثنا بكونه أي السياق أحد العوامل المؤثرة في الوحدة الموضوعية.

غير أن هذه الدراسة قد اقتضت على السياق ومداه ولم تتعرض لأثره في الوحدة الموضوعية بشكل مباشر سوى بعض التطبيقات الأصولية التي يمكن الاستفادة منها في دراستنا نحن.

عاشراً: دراسة الدكتور نجم الدين الزنكي، والموسومة بـ "طبيعة النظم القرآني وأثرها في استنباط الأحكام الشرعية" وهو بحث منشور بمجلة الاحمدية العدد ٢٢، ١٤٢٧ هـ / الصفحات (١٧ - ٧٩) الإمارات العربية المتحدة.

وفي هذا البحث كشف الدكتور عن أن النظم القرآني لم يراع فيه التزام طريقتي الترتيب الزمني ولا الترتيب الموضوعي بالمعنى الخاص وإنما جمع بين الطريقتين وتجاوزهما أيضاً، ومراً كذلك على الطبيعة النظامية للقرآن ودور المناسبة في اعتماد نوعي الترتيب (الزمني أو العثماني).

ورغم أهمية هذا البحث في موضوع دراستنا إلا أنه لم يتجاوز قضية الترتيب وما تفرع عليها من تأصيلات أصولية مما يبقي جانب الوحدة الموضوعية كمصطلح يكتنفه الغموض، ولا يكفي طموحنا في دراسة شاملة لقضية الوحدة الموضوعية وأثرها في

الاستنباط وكل ما من شأنه أن يسهم في بناء هذه الصورة المتكاملة، وقد استفدنا من هذا البحث الإشارة إلى أن الوحدة الموضوعية هي أحد الشرطين التي ينزل عندها الأصوليون في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن. وهناك العديد من الدراسات الحديثة جملها رسائل دكتوراة، أسهمت جميعها في بناء خيوط دراستنا ولم تكتمل عند أي واحد منها، ولم نذكر التفصيل فيها خشية الإطالة^١.

منهج البحث:

يعتمد الباحث في هذه الدراسة على منهجية معينة تتضح من خلال الآتي :

- ١- اعتماد المنهج الاستقرائي: وذلك باستقراء ودراسة أطراف مسائل الموضوع واستخلاص المادة المعنية به وجمع شتاتها من القرآن الكريم وكتب علم الأصول وكتب المفسرين و علماء اللغة في بعض الأحيان.
- ٢- اعتماد المنهج التحليلي: حيث يتم تحليل هذه النصوص القرآنية والأدلة الأصولية عند مقابلتها وبيان النتائج المتمخضة عنها مجيباً عن الأسئلة المرسومة في خطة هذا البحث والأهداف التي ترنو هذه الدراسة إلى تحقيقها .
- ٣- اعتماد المنهج التطبيقي: وسأعمل قدر الإمكان على ضرب الأمثلة التطبيقية من آيات الأحكام غالباً وغير آيات الأحكام نادراً، لأسباب تؤدي إلى توضيح المراد والمطلوب، وستكون هذه الأمثلة بمثابة البراهين على صحة الادعاء وصدق النتائج أيضاً، و مسaireً للمنهج الأصولي في تعزيز النظرية أو القاعدة المراد تأسيسها.

١ - الخليلي، أفلح بن أحمد بن حمد، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م، دلالة الاقتران عند الأصوليين، رسالة دكتوراة، (سلطنة عمان: مكتبة الوفاء وزارة الأوقاف، ط١). الجعيم، نعمان، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م، طرق الكشف عن مقاصد الشارح، رسالة دكتوراة، (الأردن: دار النفائس، ط١). طويلة، عبد الوهاب عبد السلام، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م، أثر اللغة في اختلاف المجتهدين، رسالة دكتوراة، (مصر: دار السلام، ط ٢). حسن هادي محمد، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، البحث البلاغي عند الأصوليين، رسالة دكتوراة، (العراق: الجامعة المستنصرية).

إجراءات البحث:

- ١- يقدم الباحث بين يدي الفصول والمباحث تمهيدا قصيرا يبين فيه العلاقة بين موضوع الرسالة على وجه العموم من جهة وعلاقته بالموضوع الذي قبله على وجه الخصوص لإيجاد التماسك الموضوعي ويختتم كل فصل بخلاصة تجمع أهم نتائجه.
- ٥- عند التعرض للمسائل الخلافية يكتفي الباحث بعرض الأقوال المنسوبة لأصحابها ثم يختار ما يترجح عنده منها وفق الأدلة المعروضة لكل قول مع الاكتفاء بدليل أو دليلين لتوحي الاختصار وتجنب الإطالة والتكرار.
- ٦- عزو الآيات والآحاديث والأقوال إلى مظانها والترجمة للأعلام الذين يغلب الظن أنهم غير مشهورين وإذا أوردت علما من مشاهير الصحابة أو التابعين فلا أترجم لهم لاشتهارهم وكذلك الأئمة المعاصرين.

هيكل البحث

الفصل الأول: الوحدة الموضوعية مفهومها وخلفيتها ومستوياتها.

المبحث الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وخلفياتها.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية.

المطلب الثاني: خلفية الوحدة الموضوعية.

المبحث الثاني: مستويات الوحدة الموضوعية.

المطلب الأول: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم جملة.

الفصل الثاني: أثر الوحدة الموضوعية في استنباط الأحكام الشرعية من النظم

القرآني.

المبحث الأول: أهمية الوحدة الموضوعية في استنباط الفقه من النظم القرآني.

المطلب الأول: طبيعة النظم القرآني وإفاداته.

المطلب الثاني: طريقة الأصوليين في استنباط الأحكام من النظم

القرآني وأثر الوحدة الموضوعية في ذلك.

المبحث الثاني: أثر الوحدة الموضوعية في استخلاص المقاصد من النظم القرآني.

المطلب الأول: معنى المقاصد وأهميتها.

المطلب الثاني: أثر الوحدة الموضوعية في الكشف عن المقاصد.

المبحث الثالث: أثر الوحدة الموضوعية في التعارض الظاهري للنصوص.

المطلب الأول: مفهومه التعارض وشروطه.

المطلب الثاني: مسالك العلماء في دفع التعارض الظاهري وأثر

الوحدة الموضوعية في ذلك.

الفصل الثالث: العوامل المؤثرة في الوحدة الموضوعية.

المبحث الأول: أثر ترتيب القرآن في الوحدة الموضوعية.

المطلب الأول: حقيقة الترتيب ومضمونه.

المطلب الثاني: مذاهب العلماء في اعتماد نوع الترتيب الذي يحقق

الوحدة الموضوعية.

المبحث الثاني: أثر القرائن السياقية في الوحدة الموضوعية.

المطلب الأول: السياق بين أهل الأصول وأهل اللغة.

المطلب الثاني: مفهوم السياق عند الأصوليين.

المطلب الثالث: أثر استثمار السياق في إفادات الوحدات الكلامية

التي تجمعها وحدة الموضوع.

أولاً: السباق واللاحق.

ثانياً: الغرض أو القصد الذي خرج عليه الخطاب.

ثالثاً: قرائن الأحوال.

الفصل الأول:

الوحدة الموضوعية مفهومها ومستوياتها.

الفصل الأول: الوحدة الموضوعية مفهومها وخلفيتها ومستوياتها.

تمهيد:

إن من مقتضيات حسن الولوج في صلب أي موضوع ودراسته دراسة منهجية، فهم مداخله، وأهم مداخل أي موضوع مصطلحاته التي تحمل كل واحدة منها دلالاتها الخاصة التي تعطي للموضوع بعده المتميز، وبالتالي تحدد المفاهيم الأولية، أو الكلية التي يراد بحثها. وبالمقابل فإن سوء فهم أي موضوع يراد دراسته مؤداه خلط تتشعب فيه مداخل البحث وتختلط فيه المعاني، فيفقد الموضوع توازنه ووضوحه، وبالتالي يفقد تفاعل الغير معه، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره وتصور مداخله^١.
لأجل هذا أثر الباحث أن يكون هذا الفصل فصلاً يبحث في مفهوم الوحدة الموضوعية ومستوياتها كونها المادة المعنية بالدراسة، وكذلك لجِدّة هذا المصطلح في الدراسات الأصولية آثرت أن أبين مفهومه ومداه وما يرتبط في ذلك بالدراسة وما يخرج عنها ويجري العمل في هذا الفصل في مبحثين مستقلين:

المبحث الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وخلفيتها.

المبحث الثاني: مستويات الوحدة الموضوعية.

^١ انظر: أبو هراوة، سعيد بن محمد، (١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م)، البعد الزماني والمكاني وأثرهما في التعامل مع النص الشرعي، مكتبة دار الفوائس، ط ١، ص ٢.

المبحث الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية وخلفيتها.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية.

المطلب الثاني: خلفية الوحدة الموضوعية.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية.

الوحدة لغة:

وحد يحدّ، وحدا ووحدة وحادّة ووحدا مثل وعد في التصريف، والوحدة الانفراد فهو وحيد أي منفرد^١، كذلك و كلّ شيء على (حدّة) أي متميز عن غيره.^٢ والوحدة تطلق على ما اجتمع من الأشياء حتى يكون كالواحد المنفرد. إذاً فإن معنى الانفراد قد يأتي من كونه اجتمع حتى صار كالواحد المنفرد. الوحدة اصطلاحاً: فالوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم وتطلق ويراد بها عدم التجزئة ولا تقسام^٣.

الموضوعية لغة: من وضع موضعاً وموضوعاً، وجمعه مواضيع وموضوعات، وهو المادة التي يبني عليها الكاتب أو الخطيب أو المحدث كلامه^٤.

الموضوعية اصطلاحاً: القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة^٥.

الوحدة الموضوعية كمركب وصفي: اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى "وحدة الموضوع"^٦.

وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها: البحث عن قضايا خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبخته لنحقق الهدف وهو (الوحدة الموضوعية في القرآن

^١ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٣٢.

^٢ انظر: الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د.ت، بيروت: المكتبة العلمية، ج ٢، ص ٦٥٠.

^٣ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٣٢.

^٤ انظر: مسعود، جبران، ١٩٨٦ م، قاموس الرائد، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٥)، ج ٢، ص ١٤٥٦.

^٥ انظر: سعيد، عبد الستار، ١٩٨٦ م، المدخل إلى التفسير الموضوعي (القاهرة: الدار الإسلامية للطباعة والنشر، د.ط)، ص ٢٠.

^٦ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٣٣.

الكريم) ^١، ومن هذا اتضح لدينا مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فالمراد بالوحدة الموضوعية أن يكون العمل الفني متماسكا إلى أبعد درجات التماسك بحيث أن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة لأن العمل الفني يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، ولذلك ينبغي أن نقرر أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون بين ناحيتين: الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية وسيلة دائما للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى ^٢.

وإذا أراد الباحث الحديث عن الوحدة الموضوعية في سورة ما، لا يريد أن يقارن بين القرآن الكريم من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى، إنما يريد أن يوضح تلك الوحدة الموضوعية، ويبين التماسك العضوي ويؤكد الترابط الفني الدقيق ^٣.

المطلب الثاني: خلفية الوحدة الموضوعية.

كان لإيمان المسلمين منذ القدم بأن القرآن الكريم وحي من الله وأن الله قد راعى ضعف البشر وصعوبة تخلصه من رواسب الجاهلية فجاءت الأحكام والتشريعات متدرجة في معظمها، فقد عني الصحابة بمعرفة المكّي والمدني والناسخ والمنسوخ وأول ما نزل وآخر ما نزل ودونت في ذلك الكتب منذ القرن الثالث الهجري وتتابعت المصنفات على ذلك ^٤، ثم وقع خلاف قديم بين العلماء المتقدمين السابقين فذهبت طائفة إلى القول بالتناسق بين آيات القرآن الكريم وارتباط بعضها ببعض وذهبت طائفة أخرى إلى أن القرآن "لم يأت على نسق الكتب الموضوعية إذ ليست له مقدمة وليست فيه

^١ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٣٤

^٢ انظر: باجودة، حسن محمد، ١٩٨٦ م، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، (جدة: مكتبة تامة، ط ٢)، ص ٤٥.

^٣ انظر: سنسي، عبد الله، ٢٠٠٦ م، الوحدة الموضوعية في سورة يس، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

^٤ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، ٢٠٠٥ م، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ص: ٥٩

مباحث موضوعية مرتبة لها مقاصد أو أغراض في فصول وأبواب وإنما كان القرآن مشتملا على عدة سور كل سورة منه احتوت على آيات متعددة كل آية في غرض، فهذه للوعظ وتلك للزجر وهذه قصة وأخرى لحكم من الأحكام وأخرى لوصف الجنة أو النار "١"، "٢" لذلك "وجد المستشرقون - أعداء الإسلام في هذا الخلاف منفذا خالوه من الاتساع بحيث يدخل منه دسهم ومكرهم ويكون القبول حليفه فزعموا "٣" أن القرآن خليط متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ولا يتبع منهج التأليف العلمي أو الفني من عرض الموضوع ومناقشته وتدوين الملاحظات واستنتاج الحقائق بل نجد السورة تدخل في أكثر من موضوع وتعرض الجميع عرضا مبتسرا سريعا لا تراعي فيه مناسبة بين محتوياتها فهي أشبه بقولهم : عسل - لبن - خمر."٤

وقد اشغل المعاصرون من علماء المسلمين منذ النصف الثاني للقرن الماضي بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وتتابع المصنفات على ذلك أيضا مع اختلاف بينهم في أصولها ومعالمها، وقد ندرك مدى أهمية دراسة الوحدة الموضوعية إذا علمنا أنها تجيب عن كثير من التساؤلات وتفند العديد من الشبهات، يقول الشيخ سعيد حوى - رحمه الله - في مقدمة كتابه الأساس في التفسير - ذلك الكتاب الذي يشتمل على نظرية متكاملة في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم مبينا سر اهتمامه بهذا الموضوع :

" ولقد سئلت أكثر من مرة من بعض من عرضت عليهم وجهة نظري في فهمي للصلة بين الآيات والسور عن فائدة هذا الموضوع وكنت أجيبه بأن هذا الموضوع فيه رد على شبهة أعداء الإسلام الذين زعموا أن هذا القرآن لا يجمع آياته في السورة الواحدة

^١ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ١٣

^٢ انظر: القول هنا للشيخ حجازي حاكيا قول بعض الطاعنين في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

^٣ انظر: الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، ١٤٢٠هـ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، (الرياض: مكتبة الرشيد، ط ٥)، ص ١٢.

^٤ انظر: شحاتة، عبد الله محمود، ١٩٨٤م، منهج الإمام محمد عبده في التفسير، (القاهرة : جامعة القاهرة، د.ط)، ص ٣٦

^٥ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ٥٩

جامع ولا يربط بين سوره رابط، وذلك لا يليق بكلام البشر فكيف بكلام رب العالمين، إنها لشبهة فظيعة جدا أن يحاول محاول إشعار مسلم بأن كتاب الله ينزل عن كتاب البشر في هذا الشأن، وقد استطعت بحمد الله أن أبرهن على أن كمال القرآن في وحدة آياته في السورة الواحدة وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلا، ولا تخطر على قلب بشر، لقد استطعت بهذا أن أورد السهم إلى كبد راميهِ من أعداء الله في هذه النقطة بالذات "١. أقول: وهذه حكمة من حكم العليم الخبير أن يقيض من أعداء الدين من يخدم الإسلام من حيث لا يشعرون، فإن إثارة أعداء الإسلام لهذه الشبهة الباطلة دفع الكثير من الغيورين إلى دراسة هذا الموضوع بتعمق"٢. وصدق أبو تمام في قوله ٣:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

١ انظر: سعيد حوى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الأساس في التفسير، (القاهرة: دار السلام، ط٢)، ص١، ج٢٧

٢ الشرقاوى، أحمد بن محمد سالم، ١٤٢٥هـ، موقف الشوكاني في تفسيره من المناسبات، بحث محكم بكلية

أصول الدين جامعة الأزهر، (د.م، د.ط)، ج١، ص٢٢

٣ انظر: أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣ م،

شرح ديوان الحماسة، المحقق: غريد الشيخ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١)، ج١، ص٢٩٤.

المبحث الثاني: مستويات الوحدة الموضوعية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ككل.

مدخل:

لقد مر بنا في المبحث السابق أن علماء المسلمين قد اهتموا بمفهوم الوحدة الموضوعية، وأن الدراسات قد تابعت في هذا المجال رامية للوصول إلى مرحلة من النضج فكأن مفهوم الوحدة الموضوعية بحسب طرح الباحثين المعاصرين وما سطره في هذا المجال يدور بين أمرين:

أولاً: وحدة الأفكار والموضوعات^١

التي يتناولها النص القرآني، فما يقدمه مثلاً عن المال في أول القرآن الكريم، له علاقة مع ما يذكره عن المال في آخره، ويتكامل معه، ذلك لأن المصدر الذي صدر عنه النص القرآني يفترض منطقيته وانسجامه مع بعضه، وهو معنى الآية الكريمة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^٢.

ثانياً: وحدة الموضوع الذي يطرحه القرآن في السورة، التي تشكل برمتها موضوعاً واحداً.

إذاً فالآيات القرآنية قد تظهر الموضوع على مستوى القرآن الكريم كله، أو تظهره على مستوى سورة واحدة من سوره، بوصف هذا الموضوع النسيج الذي تشكله الآيات القرآنية في تلك السورة، وأن ذلك الموضوع المعني بالدراسة - يكون إما على مستوى القرآن، أو على مستوى السورة - هو مما تتطلبه حاجات العصر، ومستجداته الملحة في نظر البحث العلمي الرصين.^٣

^١ انظر: د. عبد الرحمن الحاج إبراهيم، ٢٠٠٢ م، المناهج المعاصرة في تفسير القرآن وتأويله، كاتب وباحث من سوريا، عن الشبكة الإسلامية (islam web).

^٢ النساء، الآية ٨٢

^٣ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، (د.م، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط٢)، ص ٢٠.

المطلب الأول: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

نشأة الفكرة :

في هذا المقام لا بد من التمييز بين الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة، والوحدة الموضوعية في القرآن ككل، " فأما وحدة الموضوع في السورة الواحدة فهو علم وضع الباقلاني يده عليه وضع القدير المتبصر فقطع أعذار المتهاونين فيه، وأعمل فيه فكره في كتابه إعجاز القرآن، والانتصار فأثبت في هذا الفن قدمه في موضع الأستاذية، ففي كتابه الإعجاز اختار سورتي النمل وغافر كاملتين بوصفهما نموذجين للإعجاز القرآني، وبرهانين على اتصال المقدمة ببقية أجزاء السورة من الإخبار عن الربوبية، قال: " وانظر كيف ينتقل القرآن من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً بديع التأليف وبلغ التنزيل ".^١

فهو إذن من أوائل الذين " اعتنوا بتبيين الوحدة في الصورة الفنية على النحو الذي تناول به سور القرآن حين بيّن ترابط أجزاءها ترابطاً يتضح فيه اتصال المتأخر بالسابق، واستدعاء آياتها بعضها بعضاً بحيث يدخل عليها الخلل إذا غيّرت هذه الآيات عن مواضعها بتأخير أو تقديم، أو إسقاط لبعض عباراتها، وللباقلاني في ذلك وقفات تؤكد عنايته بإظهار الوحدة بين أجزاء النص الأدبي ودلالة ذلك على فنية مبدعة كالذي نراه في مناقشة سورة النمل وآياتها ".^٢

ومن الذين استشرفوا الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية الإمام الزمخشري، والإمام فخر الدين الرازي والإمام القمي النيسابوري^٣، والإمام ابن قيّم الجوزية في تفسيره، حيث عدّ بعض الباحثين الأساس الأول لتفسيره إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية^٤ وأكد الشاطبي فيما بعد في موافقاته الوحدة العضوية في السورة، حيث قال: " إن

^١ انظر: الباقلاني، أبو بكر ابن الطيب، ٢٠٠١ م، إعجاز القرآن، (بيروت: دار ابن حزم، ط ١)، ص ٢٨٨

^٢ انظر: المصدر السابق، ص ٤٣٧ - ٤٣٨

^٣ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص ٥٧

^٤ انظر: محمد أحمد، السنباطي، ١٣٩٣ هـ، منهج ابن القيّم في التفسير، مجمع البحوث الإسلامية، (د.م.د.ط)، ص ٨٤ وما بعدها.

السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي تكوّن قضية واحدة، أي تهدف إلى غرض واحد أو تسعى لإتمامه، وأن اشتملت على عديد من المعاني " ^١. وفي موضع آخر قال: " إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحداً بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعدداً في الاعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء... ولكن هذا القسم له اعتباران: اعتبار من جهة تعدد القضايا، فتكون كل قضية مختصة بنظرها... واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عيه السورة... وجميع ذلك لا بد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالإقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود " ^٢. ويعتني الفيروز آبادي كذلك في كتابه " بصائر ذوي التمييز " بالوحدة الموضوعية في السورة ^٣، وقديماً أورد السيوطي ملاحظات نفيسة من حقها أن تكون فاتحة للوحدة الموضوعية بين السور، على أن الرابطة لا تكون آخر آية من إحدى السورتين وأول آية من تاليتها (يسمى السيوطي هذا النوع بتشابه الأطراف ^٤)، فهذا النوع من الترابط لا يخلو من تبسيط لقضية شائكة، وهي تدخل في علم المناسبات بين الآيات. ^٥

^١ انظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٩

^٢ انظر: المصدر السابق، ج ٣، ص ٤١٤ - ٤١٥

^٣ انظر: الدغامين، زياد، ١٩٩٥ م، منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، (عمان: دار البشير، ط ١)، ص ٩٨

^٤ انظر: البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، ١٩٩٥ م، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١)، ص ٨٣

^٥ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ١٠٣

جهود العلماء المتأخرين:

ومن المفسرين المعاصرين الذين قالوا بالوحدة الموضوعية للسورة، محمد رشيد رضا في تفسير المنار، ومحمد طاهر بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، وسعيد حوى في تفسيره: الأساس في التفسير، لكن القول بالوحدة الموضوعية لسور القرآن، كان أبرز ما يكون عند مفسرين رائدين، الأول سيد قطب في تفسيره: (في ظلال القرآن)، والثاني المعلم الهندي عبد الحميد الفراهي في تفسيره: (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) الذي توفي قبل إتمامه حيث لم يفسر منه إلا بعض السور.^١ و يتكلم سيد قطب في الطبعة المنقحة من الظلال على موضوع السور الأساسي، وعلى خطوطها الأساسية، وعلى موضوعاتها الفرعية، وعلى جو نزولها، وحالة المجتمع الإسلامي وقت نزولها وعلى أهداف السور ومقاصدها، وعلى شخصيتها المستقلة، وعلى طريقتها في تقرير حقائقها، وعرض موضوعاتها. فما أن ينتهي القارئ من تقديم سيد قطب للسورة حتى يكون قد تعرف على السورة، وأدراك وحدتها الموضوعية.^٢

ومن الذين درسوا بعض سور القرآن دراسة موضوعية، الدكتور محمد حسن باجودة في كتابه (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف). والدكتور أحمد نوفل في كتابه: (تفسير سورة يوسف). والدكتور ناصر العمر في كتابه: (تفسير سورة الحجرات) والأستاذ عبد الرحمن حبنكة في كتابه: (تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع).^٣ و يقول الأستاذ الدكتور لطفي الصباغ: " لا بد من أن تتوافر لمبتغي التفسير دراسة شاملة مفصلة ونظرة عامة لجوانب هذا الكتاب الكريم، وهذه القاعدة منطلق في فهم أي نص فهمًا صحيحًا، فلا يجوز أن نطيل الوقوف أمام جملة من النص، ونستنبط منها أحكامًا ونغض بصرنا ونغلق فكرنا عن الجمل الأخرى "^٤. و يقول محمد أحمد السنباطي: عن

^١ انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص ٥٧

^٢ انظر: المصدر السابق، ص ٥٧

^٣ انظر: المصدر السابق، ص ٥٨

^٤ انظر: أحمد بن لطفي الصباغ، ١٩٨٩ م، بحوث في أصول التفسير، (الأردن: عمان، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط ١)، ص ٢٤٤.

منهج ابن القيم في التفسير: «يظهر أن الأساس الأول لمنهج ابن قيم الجوزية يتمثل في إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وهي التي نزلت السورة لها، وتعد أساساً لفهم آياتها؛ بحيث ترى أن كل جزء من السورة يبدو خادماً ومخدوماً فيها»^١ و النظرة العجلى في السورة، قد توحى لصاحبها أن هذه السورة قد اشتملت على عدة موضوعات متفرقة، ولكن النظرة المتأنية الواعية تصل بصاحبها إلى أن السورة تتناول موضوعاً واحداً، تتفرع عنه عدة موضوعات مترابطة، حيث تجدد التجانس والتلاحم يجمع بين أولها وآخرها ويؤكد ذلك وسطها.^٢

أهم الاعتراضات حول فكرة وحدة الموضوع في السورة:

١- اختلاف العلماء في تحديد عناوين الموضوعات:

لذلك فقد أنكر بعض الباحثين القول بوحدة الموضوع في السورة، حيث قال: " وقد عد بعض العلماء في هذا النوع - التفسير الموضوعي العام - ما يسمى بالوحدة الموضوعية في القرآن أو سورة منه بأن يجعل المفسر للسورة الكريمة هدفاً ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف. وأرى - والله أعلم - أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي ؛ لأن موضوعه - وهو هدف السورة المتعددة الآيات - أمر التماسي اجتهادي تختلف فيه الأنظار فكيف تصنف الآيات في السورة هدف مختلف على تحديده ؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال مع أن الأصل في التفسير تقوم لها الضرب خطة علمية محكمة القواعد، واضحة المعالم، فإننا نعهده من باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي.^٣ وأجيب عن ذلك بأن "هذا الرأي يعبر عن عجز فضلاً عن قسوته في

^١ انظر: السباطي، محمد أحمد، منهج ابن القيم في التفسير، ص ٨٤، وبعدها.

^٢ انظر: عبد المحسن بن زين بن متعب المطيري، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، دعاوى الطاعين في القرآن الكريم

في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، د.ط)، ج ١، ص ٢

^٣ انظر: عبد الستار فتح الله السعيد، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، المدخل إلى التفسير الموضوعي، (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ٢)، ص ٢٤-٢٥.

الحكم على طائفة المنتصرين للوحدة الموضوعية في السورة أمثال الشاطبي قديماً ودراز حديثاً، فهو يرى في اختلاف وجهات نظر المفسرين في تحديد قضايا السور خير دليل على نفي الوحدة فيها، وهذا الاختلاف وإن كان واقعاً لا بُد من الاعتراف به إلا أن معرفة السمين من الغث من تلك التوجهات قريبة المنال، والأوهام وإن تباينت في تحديد قضايا السورة قادرة على ترجيح الظاهر منها كما ظهر من خلال سورة البقرة سابقاً.^١ فالسورة الواحدة تشترك في وحدة الهدف والغاية والمعنى، أو وحدة النظم بصفة عامة، وليس اضطراب العلماء في تحديد موضوعات السور بمدعاة إلى مثل هذا القول، وليس اختلافهم بمدعاة إلى أنكار القول بوحدة الموضوع في السورة وليست وحدة الموضوع في القرآن بأكثر دلالة من وحدة الموضوع في السورة الواحدة على إعجاز القرآن الكريم وهديه، فكل منهما يؤدي غرضاً، ويحقق هدفاً ومعنى، وكل منهما يشترك في أن الرابطة بين آياته خاصة وقريبة.^٢

٢- عدم تصورهم للوحدة الموضوعية رغم تعدد الموضوعات ظاهراً في السورة الواحدة: يقول الأستاذ مصطفى ناصف: " وربما يتبين لنا أن هذا التفسير الموضوعي هو التعبير الحقيقي عن فكرة الإطار العام، ولكن يمكن أن تكون السورة في حد ذاتها إطاراً عاماً، ولكن بيان وحدة الإطار في السورة أشق؛ لأن السورة ليست مبنية على موضوع واحد، وإنما تتوزع عادة بين طائفة غير قليلة من الموضوعات ؛ وذلك كانت الوحدة الخاصة بالسورة ليست وحدة موضوع. ولكن انتفاء الوحدة عن السورة من حيث الموضوع ليس بالأمر الذي يغلق الباب أمام بحث إطار السورة ".^٣ ويقول الدكتور دراز رحمه الله: " ينبغي أن نركز على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلاً عن بعض علماء المسلمين، وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة. فعندما لاحظ

^١ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ١٢٨

^٢ انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص ٢٣٨.

^٣ انظر: مصطفى ناصف، ١٩٩٠م، نظرية المعنى في النقد العربي، (بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر، ط ٢)، ص ١٦٣-١٦٤.

بعضهم بنظرته السطحية عدم التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة لم ير القرآن إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة، وبدون أي ربط منطقي".^١ ونفى باحث آخر أن يكون كلام دراز مقصوداً به تقرير وحدة الموضوع في السورة، أو أن يكون الروح العام الذي يسري في آيات السورة هو وحدة موضوعية - وحاول الدفاع عنه بقوله: " إن د. دراز لا يعني بالروح العام أو بالوحدة العضوية في السورة أن للسورة غرضاً واحداً، بل عمله في ذلك ليس إلا البحث عن إطار للسورة يجمع آياتها.^٢

رأي الباحث:

وتوكيداً لما عرض سابقاً فإننا نذهب إلى " إن تنوع القضايا في السورة الواحدة كمجموع لا كجميع هي الظاهرة القرآنية وليس وحدة الموضوع في كثير منها، وعلم المناسبة القرآنية يخدم توجه من قال باتحاد القضايا فيها تارة، ويخدم توجه من قال بعكس ذلك تارة أخرى".^٣

وايوان ذلك يمكن القول أن التناسب هدفه بيان العلاقة عند الانتقال من موضوع ما من موضوعات القرآن الكريم إلى موضوع آخر، فقد يأتي موضوع العقيدة متلوّاً بموضوعات التشريع مع وجود تناسب فكري في هذا الانتقال، وهذا لا يدل على وحدة الموضوع فيه قدر دلالاته على انسياب الأفكار بصورة لا تترك أثراً في النفس عن وجود حلقة مفقودة بينها، فكون السورة تحمل موضوعات كثيرة فإن ذلك لا يمنع من أن يكون هناك موضوعاً واحداً ومقصداً واحداً تؤديه هذه الموضوعات مجتمعة، عمادها المناسبة. وقد نبّه المعلم الهندي الفراهي (ت ١٩٣٠ م) على هذا الفرق في دلائل

^١ انظر: دراز، محمد عبد الله، ١٩٨٤م، المدخل إلى القرآن الكريم، (الكويت: دار القلم، د. ط)، ص

١١٨-١١٩

^٢ انظر: محمد إبراهيم شريف، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ط١)، ص ٥٢١. وانظر: حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٩٤.

^٣ انظر: عبد الرحمن حسن عبید، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ١٥٦

^٤ انظر: المصدر السابق، ص ١٢٨

النظام، فجعل علم المناسبات جزءاً من الوحدة الموضوعية لأن^١ " التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئاً واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، وربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئاً واحداً " ٢، وأكد هذا المعنى في موضع آخر، فقال: " المعترفون بوجود التناسب جعلوا التناسب علماً شريفاً، ولكنهم لم يجعلوه جزءاً من مفهوم القرآن، ولذلك بقي متروكاً لإشكاله، وأما نحن فنقول: إن فهم القرآن محول إليه، والوجوه الكثيرة في التأويل ومع الاعتماد على تأويل صحيح إنما نشأ من عدم المعرفة بالنظام، فإنه هو المعتمد في صحيح التأويل ورفع شكوك الحيرة " ٣. لذلك يمكن توجيه كلام من قال بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية من العلماء المتقدمين أنهم لا يعنون أن السورة القرآنية تحتوي على الوحدة الموضوعية بالمعنى الخاص أي أن موضوعها واحداً وأما تتوفر بين آياتها المناسبة الفكرية التي تأخذ بوشائجها وتجعلها تتلاحم حتى تؤدي كل آياتها وتصب في خدمة الموضوع العام، وعلى هذا جرى تصنيف من صنفوا في الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية من المعاصرين.

المطلب الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم جملة

عرف حجازي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم بأنها " البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبخته، لنحقق الهدف، وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم " ٤. وعرف المصدر الدراسة الموضوعية بأنها: " التي تطرح موضوعاً من موضوعات

^١ انظر: المصدر السابق، ص ١٢٨

^٢ انظر: الفراهي، عبد الحميد، ١٣٨٨هـ، دلائل النظام، (الهند: المطبعة الحميدية، د.ط)، ص ١٦

^٣ انظر: المصدر السابق، ص ٧٥.

^٤ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٣٣ - ٣٤

الحياة العقائدية، أو الاجتماعية، أو الكونية، وتوجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية، للخروج بنظرية قرآنية بصدده^١.

وعرفها عبد الستار سعيد بأنها: " جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد ووضعها تحت عنوان واحد، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً مستخرجاً من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة "^٢.

واختار مصطفى مسلم تعريفاً آخر هو: " علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر "^٣.

ومهما يكن من أمر هذه التعريفات فإنها متفقة على ضرورة تتبع موضوع ما مبثوث في سور القرآن، وإعادة تأليفها في قالب جديد، يُظهر تماسكها واتحادها الفكري.^٤ ومما ينبغي الإشارة إليه أن الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ككل مسلك حديث، وإن كانت بواده ظاهرة في علم المناسبات بين السور، ويبدو أن الفكرة قد اتضح شيء من معالمها عند عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) ليحقق بذلك بداية ذكية في منهج فهم القرآن فهماً موضوعياً، والجاحظ الذي يمثل فكر مدرسة الاعتزال وطريقة بحثها - وهي مدرسة أحاطت القرآن بالنظرة الشاملة، وبالتقصي الجزئي لآيات القرآن وموضوعاته - أول من أشار في كتاباته إلى التفسير الموضوعي، " ولعل الجاحظ حين سلك مسلك مدرسته هذا ؛ ووسع نظره الشاملة إلى القرآن متنبه إلى ما ننادي به اليوم من تفسير موضوعي للقرآن، يتناوله موضوعاً موضوعاً في وحدة متكاملة، وفي نسقها التاريخي كما يرى بعض الباحثين.^٥ ويمثل لذلك بدرس الجاحظ لموضوع " النار في القرآن ".

^١ انظر: محمد باقر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، المدرسة القرآنية، (بيروت: دار التعارف، ط ٢)، ص ١٧.

^٢ انظر: سعيد، عبد الستار، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص ٣٣.

^٣ انظر: مسلم، مصطفى، ١٩٩٧م، مباحث في التفسير الموضوعي، (دمشق: دار القلم، ط ٢)، ص ١٦.

^٤ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ١٥٦.

^٥ انظر: المصدر السابق، ص ١٠١.

^٥ انظر: مصطفى الصاوي الجويني، د. ت، مناهج في التفسير، (الإسكندرية: منشأة المعارف، د. ط)، ص

وموضوعات أخرى مثل: " ما ذكر به ك " العذاب بالجراد والقمل والماء "، وموضوع " الملائكة في القرآن " .

ولم يطبق الجاحظ منهج التفسير الموضوعي بتفصيلاته كما نفهمه اليوم، ولكن على كل حال هو مدرك لأصل الفكرة، وهو أن يكون الموضوع القرآني محور التفسير في نسق تاريخي متكامل. ^١ كذلك فقد مر بنا سابقاً بأن "مقولة اتحاد الموضوع في كل سورة من سور القرآن مقولة لا تخلو من مبالغة وتعميم لا تسندها دراسات مستفيضة ووافية، فالتنوع في مواضيع السورة الواحدة ظاهرة لا تخفى" ^٢ وهذا التعدد والتنوع هو جوهر الوحدة الموضوعية (في القرآن ككل) التي لا تكتمل في كل سورة، بل تتكامل في السور مجتمعة. ^٣

يقول الزرقاني - رحمه الله تعالى - (إن القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السبك متين الأسلوب قوي الاتصال أخذ بعضه برقاب بعض في سورته وآياته وجمله يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تحاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط، ^٤ وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار نظمت حروفه وكلماته، وسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوفاً لأوله، وبدأ أوله موافياً لآخره) ^٥، ولتأكيد الوحدة الموضوعية بين آيات القرآن الكريم نرى رجال المدرسة العقلية يوازنون بين هذه وتلك فيختارون في التفسير ما يلتئم مع السياق ولهذا

^١ انظر: المصدر السابق، ص ١٦٠ .

^٢ انظر: حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٩٤ .

^٣ انظر: عبد الرحمن حسن عبيد، السورة القرآنية بين الترتيب التوقيفي والترتيب النزولي وأثر ذلك في

الوحدة الموضوعية والمناسبة القرآنية، ص ١٢٥

^٤ انظر: الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، ١٤٢٠هـ، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، (الرياض: مكتبة الرشيد، ط ٥)، ص ٢٣١، معنى كلمة (سمط): القلادة. انظر: مجمل اللغة لأبن فارس،

ج ٤٧٣ / ص ١

^٥ انظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، د. ت، مناهل العرفان في علوم القرآن، (د. م،

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٣)، ج ١، ص ٦٠

ربما استعرضوا آراء المفسرين السابقين في تفسير كلمة قرآنية ورفضوا لمخالفتها لهذا الأساس.^١

يقول الدكتور محمد محمود حجازي في رسالته للدكتوراه المعنونة بـ "الوحدة الموضوعية في القرآن" قد عرفنا أن القرآن نزل منجّماً، وكلُّ وحدة في النزول ضُمت لأخواتها في مجموعة واحدة "السورة القرآنية"، هذه الوحدة إذا ضمت إلى وحدات أخرى لم تكن كالوحدة الحسابية إذا ضمت إلى زميلتها، وإنما هي وحدة ضُمت إلى وحدة كما يُضَمُّ العضو في الجسم إلى العضو الآخر، وقال أيضاً: "أرأيت إن الوحدة الموضوعية لم تتم إلا بضميمة كل ما ذكر من آيات في السور كلها، وهذا ما نريد أن نصل إليه، فنقول: لا يمكن تحقُّق كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورةٍ فيها الموضوع على انفراد، وها نحن عرفنا أن سورة المائة كغيرها من السور اشتملت على عدَّة موضوعات لا تعطينا وحدة كاملةً إلا إذا ضمَّ لها ما ذكر في غيرها، وكل ما ذكر في السور الأخرى له وجهان: وجه اتفاقٍ، ووجه اتِّحادٍ يتعاونان في تكوين موضوع واحد يتكامل مع بقية أجزائه المذكورة في السور الأخرى وهذه الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم قائمة على تدبُّر نظم الآيات، آية آية، والربط بين الآيات عن طريق السياق والمقام ومدارسة علم المناسبات القرآنية.

وقد ذكر الشاطبي في "الموافقات" أن القرآن الكريم يصح أن يعد كلاماً واحداً بحسب خطاب العباد، أي: يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما، وذلك أن يبين بعضه بعضاً، حتى أن كثيراً منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر، أو سورة أخرى، ولأن كل منصوص عليه فيه من أنواع الضروريات مثلاً مقيد بالحاجيات، فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على بعض في الفهم، فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار.^٢

^١ انظر: الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ص ٢٣٣
^٢ انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٥٧٩٠هـ)، د. ت، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، (بيروت: دار المعرفة، د. ط)، ج ٣، ص ٤٢٠

وحديثاً، يؤكد بديع الزمان النورسي - رحمه الله - أصالة هذا الاتجاه في فهم القرآن بقوله: " إنَّ آياته مع كمال الانسجام وغاية الارتباط وتمام الاتصال بينهما يتيسر لكل أحد أن يأخذ من السور المتعددة آيات متفرقة لهدايته وشفائه، كما أخذها عموم أهل المشارب وأهل العلوم، فبينما تراها أشتاتاً باعتبار المنازل والنزول، إذا تراها قد صارت كقلادة منظّمة ائتلفت، واتصلت مع أخواتها الجديدة، فلا بالفصل من الأصل تنتقص، ولا بالوصل بالآيات الأخر تستوحش، فهذا السر يشير إلى أن لأكثر الآيات الفرقانية مع سائر الآيات مناسبات دقيقة يجوز ذكرها معها، واتصالها بها،^١ وهذا مظهر عجيب من مظاهر إعجاز القرآن الكريم؛ ففهم الآية مع أخواتها في السياق نفسه يؤدي غرضاً، ويحقق مقصداً، وفهمها في سياقها مع نظيراتها في السور الأخرى يعبر عن فهم مقاصدي لموضوع الآيات القرآنية، وهي الفكرة التي يستند إليها التفسير الموضوعي.^٢

^١ انظر: النورسي، سعيد، ١٩٩٤م، المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان الصالحى، (اسطنبول: سوزلر للنشر، د. ط)، ص ٢٤٩.

^٢ انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص ٤٠.